احمق قرار اتخذه بريمر كان حل الجيش العراقي.
17

موفاز في الوسط: مصالحنا الامنية في السيطرة الجوية والبحرية وحول القطاع.
17

دارفور مأساة افريقية جديدة... "الجنجاويد" يفتكون بالمدنيين ويحرقون منازلهم.
18

لبنان "الساحة" خط أحمر... إجرام!

نقولا نصر •

بكلمتين

الحراك السياسي اللبناني والاداء الذي ينتهجه بعض السلطة يشكلان نموذجا خاصا، والمسألة تكتسي طابعا اكثر وضوحا، لجهة ادخال لبنان في صراعات لا يقوى على تحمل تبعاتها... والدول العربية الكبرى لم تقو على ما يرتكب في لبنان.

في أي زمن، لا سيما في الزمن الحالي الرديء الى ابعد الحدود، الناشئ عن تداعيات الاحتلال الأميركي للعراق ومضاعفات الحرب الشرسة الدائرة رحاها بين الجيش الاسرائيلي المحتل والشعب الفلسطيني المنتفض على الاحتلال، وهي حالة تعرض الشرق الأوسط برمته لمخاطر مستقبلية لا يمكن التكهن بخواتمها، في هكذا أوضاع، على السلطة اللبنانية أن تتخذ التدابير الأمنية الضرورية والحاسمة كافة، بحيث لا يتحول لبنان مجدداً الى ساحة لأي كان، الى مسرح في خدمة مصالح القوى الاقليمية والدولية المتصارعة.

من هذا المنطلق نقول بالصوت العالي ان ما جرى في 22 آذار الماضي على الحدود اللبنانية ـ الاسرائيلية لا يجوز ان يتكرر على الاطلاق، لأنه يتعارض كلياً مع مصلحة لبنان العليا، امناً واستقراراً على الأقل.

في ذلك اليوم، وقع حادثان ملفتان:

1 ـ رداً على اقدام اسرائيل، عند الفجر، على اغتيال احمد ياسين مؤسس وزعيم حركة "حماس" في غزة، قام "حزب الله" بقصف المواقع الاسرائيلية في مزارع شبعا عند المساء، وقد ورد في بيانه حرفياً: "سرايا الشهيد الكبير القائد الشيخ احمد ياسين في المقاومة الاسلامية هاجمت... مواقع العدو الصهيوني كافة في مزارع شبعا".

2 ـ وبعد مضي ساعتين ونيف، اطلقت "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة" ـ وهي جبهة كما هو معروف خاضعة لتوجهات السلطة السورية ـ من غرب منطقة مرجعيون صواريخ كاتيوشا على الجولان السوري المحتل. وبالنسبة الى الحادث الأول، قال حسن نصرالله في 28 اذار الماضي ايضاً خلال احتفال اقيم "وفاء لفلسطين وللشيخ الشهيد احمد ياسين"، ما يأتي: "أقول لاخواننا في فلسطين... نحن معكم في لبنان. في مقاومتنا اللبنانية معكم... وأقول لقيادة حماس... اعتبرونا نحن في حزب الله من الآن... جنوداً في حركة حماس تحت قيادتكم".

تعليقاً على الحادثين المذكورين، نبدي الملاحظات الآتية:

1 ـ لم ننس بالطبع البطولات التي سجلها حزب الله في مقاومته على أرض الجنوب، والتي أدت الى انسحاب اسرائيل منه في 25 ايار 2000، باستثناء مزارع شبعا التي يعتبرها لبنان لبنانية ولا تعترف حتى الساعة الأمم المتحدة بذلك.

2 ـ من حق حزب الله الاستمرار في مقاومته اللبنانية الصرف، دفاعاً عن ارض لبنان، لكن لا يجوز له على الاطلاق شهر سلاحه من لبنان، دفاعاً عن اي قضية اخرى، فلسطينية كانت او عراقية او اسلامية، لأن هوية لبنان التعددية لا تجيز القيام بأي عمل عسكري له صفة طائفية، اسلامية كانت هذه او مسيحية.

3 ـ لا يجوز لأي حزب لبناني وللاحزاب والقيادات اللبنانية كافة، القيام بأي عمل عسكري على الحدود اللبنانية ـ الاسرائيلية، خدمة لأي جهة خارجية. وبصورة أوضح وأشمل، أي مغامرة تعرض لبنان لمهالك لا طاقة له على تحملها.

4 ـ أي تحرك عسكري فلسطيني او موال للفلسطينيين انطلاقاً من ارض لبنان او من الحدود اللبنانية، لا يجوز السماح به على الاطلاق. ذلك ان لبنان دفع ثمناً باهظاً لذلك التحرك قبل "اتفاق القاهرة" المرتجل والبعيد عن الاضواء، الذي كان قد وقعه فقط قائد الجيش اللبناني في 3 تشرين الثاني 1969 مع ياسر عرفات، حيث "شرع" قيام "فتح لاند" في الجنوب، ذلك الاتفاق الذي كان في اساس الحرب اللبنانية، والذي أدى عملياً الى اجتياح اسرائيل لبنان في اذار 1978 (عملية الليطاني) وفي العام 1982، وعناقيد غضب العام 1996...

5 ـ بالطبع، يفخر اللبنانيون بهويتهم العربية، التي نص عليها اتفاق الطائف، ثم الدستور اللبناني لكن من واجبنا ان نشير الى ان أي دولة عربية أخرى لم تسمح يوماً بالقيام بعمل فلسطيني فدائي من اراضيها: لا سورية ولا الاردن ولا مصر، على سبيل المثال.

6 ـ بل أكثر من ذلك، نلاحظ ان جميع الدول العربية الأخرى ـ رحم الله الجامعة العربية! ـ مهتمة اليوم بأمر واحد: امنها الداخلي وسلامة انظمتها، باستثناء لبنان وسورية، اللذين ما زالا يمتلكان الجرأة للدعوة الى السلام العادل والشامل في المنطقة، بالطبع سياسياً، فيما الحكام العرب الآخرون اصبيوا كلهم بالبكم والصمت المريع حول كل ما يجري من مآس في الشرق الأوسط.

7 ـ المطلوب باختصار من لبنان، شعباً وحكاماً، الا يكون ملكياً أكثر من الملك، ان يقوم بما هو قادر عليه، من دون اي مساس بأمنه الذاتي واستقراره، ان يكون دولة قوية وقادرة، بقواه الذاتية، الا يخطو أي خطوة ناقصة، الا يكون كبش محرقة في سبيل اي كان، ان يمتلك بعد نظر، تقية المهالك، الا يكون اداة في يد أحد، الا يكون ذلك الطفل المخدوع بنصيحة ثانية من هنا، او تهويل ينصب عليه من هناك، أو بإملاءات تفده من هنالك، ان يكون له رأي ذاتي وحضور، ان يتقن قول "لا" أو "نعم"، أن يصون وحدته الداخلية ونظامه الديمقراطي... ان يوظف "اشعاعه" التاريخي في المجالات المترجمة لهذا الاشعاع... وللوصول الى كل ذلك، ان يدك حصون السياسيين الفاشلين والفاسدين والانتهازيين والمتزلفين، الذين لا يتحلون بقيم الاخلاق والفكر والتجرد، وهي قيم لازمة لأي متعاط في الشأن العام.

> ❑ من حق حزب الله الاستمرار في مقاومته اللبنانية الصرف، دفاعاً عن ارض لبنان، لكن لا يجوز له على الاطلاق شهر سلاحه من لبنان.

• كاتب ومحلل صحافي لبناني ـ استاذ ادب فرنسي.
nikolasn@albaladonline.com

حرق ورقة الصدر

محمد زكي ابراهيم•

لم يكن التصعيد الخطير الذي قام به انصار مقتدى الصدر على الساحة العراقية مفاجئاً لقوات التحالف. فالامور تتعلق بتركيبة التيار الذي يحتله الصدر، والا لكان ما حدث حتى هذه اللحظة شيئاً عادياً.

وربما لا يعرف كثيرون ان هذا التيار ليست له ايديولوجية واضحة، ولا برنامج محدداً، يمكن بواسطته الحكم على توجهاته السياسية. وبسبب ذلك كان الغموض يحيط به على الدوام ويدفع بجهات كثيرة الى النظر اليه بعين الحذر، ولا سيما المرجعيات والاحزاب الدينية الاخرى.

انه تيار صدامي (بكسر الصاد)، يعتمد على قدرات تعبوية فريدة. ويستمد تقاليده من اسرة مؤسسه المجتهد المعروف السيد محمد صادق الصدر (1943–1999) وخلافاته مع السلطة السابقة، التي اودت بحياته، ويستذكر على الدوام علاقاته المتوترة بباقي المجتهدين. وقد اصبح هذا السلوك اساساً نظرياً لكل التحركات السياسية التي اعتمدها التيار بغض النظر عن المستجدات المحلية والدولية، التي القت بظلالها في الميدان.

وقد ابتدأ الرجل نشاطه عام 1992، بعد الفراغ الحاصل من وفاة المرجع الديني البارز ابي القاسم الخوئي، وتعدد المرجعيات الاصغر سناً... الا ان قيام السيد عبدالله علي البزواري بتولي مهام الزعامة، اجل الصراع لمدة وجيزة لم تزد عن عام وبعض عام.

ولما كانت حكومة صدام حسين ممتعضة من صعود مرجعيات شيعية ذات اصول غير عربية (ايرانية في الغالب)، فقد حرصت على استثمار الفرصة، ورغبت بوضع مجتهد عربي الاصل على رأس الحوزة العلمية (وهي مجموعة المدارس الدينية الاهلية التي يديرها رجال الدين الشيعة) لتناط به مسؤولية اعطاء تصاريح اقامة للطلبة والمدرسين الوافدين، وتكون له الكلمة الفصل في جملة من المسائل الفرعية الاخرى.

وقد وقع خيارها على السيد محمد الصدر، فلم يتردد الرجل في القبول، الامر الذي اثار حفيظة زملائه الآخرين (حوالى ثمانية)، وجمع آخر من علماء الخط الثاني الذين وجدوا في هذا التعيين تدخلاً غير مسبوق من قبل السلطات في الشؤون الشيعية.

ولان باقي المجتهدين، ومن ابرزهم السيد علي السيستاني يستمدون قوتهم من اتباعهم المنتشرين في ارجاء العالم الشيعي، فان سلطة السيد محمد الصدر كانت شكلية الى حد كبير ولكنها نجحت في اجتذاب عدد من المقلدين داخل العراق، من سكان الاحياء الفقيرة على وجه الخصوص. وما لبثت الخلافات ان استعرت بينه وبين زملائه الاخرين فنعتهم بـ "الحوزة التقليدية" مقابل "الحوزة الناطقة" التي يحتلها هو.

وفي خطوة لافتة الفى تصريح اقامة احد زملائه الاجانب، فتجاهلت الحكومة هذا الالغاء. وخلال السنوات التي تولى فيها رئاسة الحوزة نجح في استعداء معظم علماء الدين الشيعة في العراق والعالم عليه. وكذلك، وهذا هو الاهم، في استعداء السلطة القائمة ايضاً، الامر الذي دفعها لاغتياله في 1999/2/18 مع اثنين من اولاده، عقب ادائه الصلاة في الصحن الحيدري. وقد اثار نبأ اغتياله مشاعر عارمة من السخط داخل المجتمع الشيعي بشكل عام، لم يقتصر على مؤيديه فقط واندلعت احتجاجات كثيرة قابلتها السلطة بالقمع الشديد، ثم ما لبثت ان هدأت تدريجياً.

وبسقوط النظام الصدامي في 9 نيسان 2003، تنفس التيار الصدري الصعداء، وفرض نفسه بقوة في الشارع العراقي، متجاهلاً القوى الاخرى الموجودة في الساحة. واثر منذ البداية ان يتخذ جانب المعارضة للاحتلال الاميركي، محاولاً استفزازه قدر الامكان.

ولكن الخطأ الفادح الذي وقع فيه، هو اغتيال عبد المجيد الخوئي عقب عودته من المنفى مباشرة ما اثر على خلفية العداء القديم بين السيد محمد الصدر والمراجع الاخرى. وروى بعض الشهود ان الخوئي اقتيد بعد اصابته بطعنات السكاكين الى منزل مقتدى الصدر للبحث بشأنه، فطلب من اتباعه ابقاءه خارجاً، والاجهاز عليه، وهو الامر الذي لم تنسه له قوات التحالف، واحتفظت به كورقة ضغط عليه.

والمعارضة التي قادها السيد مقتضى الصدر غير واضحة المعالم. فقد رفض كل شيء بدءاً من مجلس الحكم وانتهاء بالدستور الموقت مروراً بالحكومة الموقتة، وأعلن من جانبه تشكيل حكومة ظل وتأسيس ميليشيا جيش المهدي. وفي احدى خطب الجمعة أعلن اعتزاله العمل السياسي. أما علاقاته بالقوى الشيعية الاخرى، اسلامية وعلمانية، فقد اتسمت بالنفور. وسبق لاتباعه ان ضربوا حصاراً على المراجع الاربعة الكبار، وطالبوا السيستاني بمغادرة العراق.

وفي كل هذه الاحوال، لم يعرف عن مقتدى الصدر انه طرح برنامجاً سياسياً، او بشر برؤية مستقبلية. ولا يعلم احد في ما اذا كان يؤمن بالديمقراطية اولاً، وما هي الحلول التي يراها مناسبة لمشاكل التنمية واعادة الاعمار وحفظ الامن وتشريع الدستور والأقليات الطائفية والعرقية. فكل ما يسمعه المرء هو التنديد بأميركا والاحتلال.

ان دعوته لمقاومة الاحتلال بطريقة سلمية ليست فريدة في بابها، ذلك ان معظم القوى السياسية تنتهج هذا الخط وترى ان خير وسيلة لانهاء الاحتلال هي الضغط عليه، وفي الوقت ذاته، تسجل لنفسها حضوراً سياسياً. ولكن طرق معارضة التيار الصدري استفزازية الى حد بعيد، وتطلق نعوتاً لا تتقبلها سلطات الاحتلال، ما حدا بها الى اغلاق صحيفة الحوزة الناطقة باسم التيار، بتهمة التحريض على قتل جنود التحالف، لمدة ستين يوماً.

ثم اردفت ذلك باعتقال مصطفى اليعقوبي، احد مساعدي الصدر البارزين لعلاقته بمقتل عبد الحميد الخوئي الآنف الذكر.

وقد اثار الامر موجة احتجاج واسعة من قبل اعضاء التيار تطورت في ما بعد الى مواجهات دامية في النجف وبغداد وبعض المدن الأخرى. الا ان الدعوة للاحتجاجات ترافقت مع معلومات عن محاصرة منزل السيد مقتضى الصدر نفسه، ما اعطى الاحتجاجات طابع العنف. واتضح في ما بعد ان الرجل معتصم في مسجد الكوفة بمحض ارادته.

لقد أصبح الوقت مهيأ الآن لابراز ورقة اغتيال عبد المجيد الخوئي واستخدامها للضغط على الصدر، وجره للمثول امام القضاء. وقد تبين ان مذكرة توقيف صدرت بحقه قبل اشهر عدة، ولم يتم اشهارها آنذاك.

> ❑ السيد مقتدى الصدر لم يستطع قراءة التاريخ، وصمم ان يدخل رأسه في عنق الزجاجة.

بكلمتين

مع بداية الحرب الاهلية البشعة في لبنان وفي المرحلة التي كان يطلق عليها مصطلح "الجولات" حذر بعض اللبنانيين من الذين تابعوا تطورات الحرب القبرصية من احتمالات حصول الذبح على الهوية و التهجير و الهجرة ونهب الاملاك الخاصة والعامة، لكن الاعتداء على الاموال حصل لاحقا... على الصعيد الفردي يبدو الحل الوحيد المتوفر هو الهجرة الى حد اننا لو تخيلنا ان بلدا غربيا قرر تسهيل الهجرة اليه فقد لا يبقى لبناني واحد في بلده في ظل غياب الحلول العامة.

وباعلان السفير بريمر لاول مرة، ان الصدر خارج على القانون وانه يهدد امن العراق، اصبح موقف الرجل ميؤوساً منه. وزاد في حراجة الوضع، الاشتباكات الدامية مع قوات التحالف التي اسقطت 19 قتيلاً منها، وتصريح الرئيس بوش ان مقتدى الصدر يسعى الى تقويض الديمقراطية ويتحالف مع الارهاب.

ومثلما كان رأي بوش وادارته في صدام حسين وأسامة بن لادن وسواهما سبباً في ابعادهم عن المعترك السياسي، فان السيد مقتدي الصدر لم يستطع قراءة التاريخ، وصمم ان يدخل رأسه في عنق الزجاجة. لقد أحرق السيد مقتدى ورقته بنفسه وهو في اوج مجده السياسي. ولن يكون بوسعه هو، او اي من انصاره، ان يتبوأ منصباً في اي حكومة عراقية قادمة. فتهمة التواطؤ مع الارهاب، ومحاربة المشروع الاميركي في ارساء الديمقراطية، كفيلة بالحكم على صاحبها بالنفي المؤبد.

وهكذا، تطيح الوطنية المتطرفة بأصحابها خصوصاً اذا صحب ذلك قلة الخبرة السياسية، والجهل بمجريات الامور.

الديمقراطية في العراق والمنطقة كفيلة بالحكم على صاحبها بالنفي المؤبد.

• عراقي، كاتب مقيم في لبنان
mohamedzi@albaladonline.com

2004-04-14-0015-P

في ذكرى الحرب الأهلية: لماذا حدثت؟

وفيق الهواري•

وضع اتفاق الطائف حداً للحرب الأهلية اللبنانية المنفلتة من عقالها في السنوات الأخيرة منها. لكنه لم يستطع أن يرسي أسس تسوية سياسية متوازنة تمنع نشوء اتجاهات تجد في تجدد الحرب حلا لإشكالية وضعها وعلاقتها مع القوى المسيطرة على السلطة. اذ أدى تطبيق وممارسة الاتفاق المذكور الى استبدال هيمنة طائفية بهيمنة طائفية أخرى، ونقل مركز صياغة السلطة الى الخارج، ولم ينه الحرب الأهلية بل ربط مصير البلد بيد خارجية. إن وعي الأسباب التي أدت الى انفجار الحرب الأهلية المسلحة شرط أساس لتجنبها والانطلاق من موقع آخر يجعل الانتماء الى الوطن المعيار الفعلي. فانفجارها كان نتيجة تقاطع عاملين كبيرين ورئيسين.

العامل الأول: الاختلال في نقطة التوازن التي حددت للكيان اللبناني استمراره واستقراره النسبي في الاطار العربي العام وجعلته منسجماً مع المحصلة العربية الاجمالية. اذ ان الكيان اللبناني ومنذ تأسيسه، تضمن نزعتين، سعت الأولى الى ابعاده عن ألمنطقة العربية وسعت الثانية الى انفتاح وتواصل واسع معها. من نقطة ألتوازن بين هاتين النزعتين تأسس هذا الكيان وأرسى ميثاقه الوطني، ومن تجربة ربع قرن بعد التأسيس ثبت بالتجربة أن الكيان يهتز إذا اهتز التوازن المحيط به اقليمياً ودولياً ويهتز أيضاً اذا خرج عنه، ويستقر باستقراره. وقد برز هذا الاختلال بُعد أن استجد في المنطقة قيام اسرائيل وهزيمة حزيران 1967 وما طرأ على الصراع العربي – الصهيوني، ما هدد باطاحة منطق تسوية الاستقلال الأولى عام 1943.

العامل الثاني: القصور الشديد للنظام اللبناني بأساسه الاقتصادي وتركيبته الاجتماعية وبصعيده السياسي عن استيعاب التطورات الحاصلة في البنية اللبنانية على مختلف المستويات وجعله هذا القصور مغلقاً أمام إنتاج تسوية اجتماعية جديدة وأدار الظهر لحركة شعبية مطلبية وتوحيدية اجتماعياً.

من جهة أخرى لم يحمل اليسار اللبناني برنامج تسوية يحدد فيه نقطة التوازن المطلوبة لتحصين الكيان أمام المتغيرات التي طرأت على المنطقة، وأثرت فيه، بل كان بعيداً عن رؤية نقطة التوازن وعما يمكن أن يتحمله لبنان وما يمكن عدم تحمله، إذ كان اليسار مجرد ملحقاً لتوجه عربي ثوري يتحدث عن شروط الثورة العربية بعد هزيمة حزيران 1967.

لكن المرحوم كمال جنبلاط حاول تقديم مشروع تسوية فقدم نفسه للنظام بصفته القادر على احتواء نتائج تأثيرات المقاومة وقدم نفسه للطرف الآخر، بصفته الوحيد القادر أن يكون جسره نحو النظام. إلا أن الظروف الموضوعية كانت أكبر من مشروع التسوية المقترحة، فاحتواء المقاومة لم يكن ممكناً والجسور مع النظام كانت مقطوعة، وأتت حوادث أيار 1973 لتقنع جنبلاط أن مجال التوسط قد انتهى.

الى جانب جنبلاط حاولت قوى أخرى تشكيل ركيزة لنهوض طرح تسووي، لكن انقسام المجتمع الحاد وقوة النقيضين المتصارعين، كانا حاسمين في تحويل مشروع التسوية الى مشروع من دون قوى فعلية ولا أفق مفتوحاً له.

لذلك يصبح مشروعاً سؤال التحالف السياسي الحاكم: لماذا خسرتم كمال جنبلاط؟ ولماذا سمحتم لليسار بكسبه؟ وهو الذي كان أكثر أقطابه قدرة واستعداداً لبناء نقطة التوازن الجديدة بين اللبنانية والعروبة، ويصبح مشروعاً أيضاً السؤال عن إطلاق العنان لذاك البرنامج الداعي الى الانغلاق عن المنطقة العربية.

بالمقابل كان هناك حدث عربي ضخم (هزيمة حزيران، الثورة الفلسطينية، مناخ عربي ثوري) وانتقال المقاومة الى لبنان، واستقواء اليسار والحركة الوطنية بها على المعادلة الداخلية. ورغم أن العروبة الوافدة الى لبنان عبر الثورة الفلسطينية هي أهم ما أنتجه الوضع العربي بعد نكبة 1948، لكنها ليست عروبة لبنانية بل هي عروبة وفدت الى الداخل اللبناني من الخارج. بالتالي أصبح أحد مفتاحي الحرب الأهلية اللبنانية هو ارتطام حلم عزل لبنان عن المنطقة العربية وحلم تحويل الكيان اللبناني الى ساحة بلا حدود أمام الخارج العربي، وكان اليسار اللبناني على هذه الضفة ولم يحمل أي مشروع تسوية تاريخية وكان يرى مشكلته مع الجوار العربي أنه لم ينصر اليسار والثورة الفلسطينية على الفريق الآخر. وإشكالية الكيان اللبناني ليست فريدة عربياً بل هي واحدة من سلسلة إشكاليات كيانية عربية. فالمعضلات الكيانية ولدت من رحم التجزئة الاستعمارية معطوفة على تجزئة داخلية لا حل لها إلا في رحاب حل ديمقراطي علماني، وبخاصة أن الأكثرية في كل كيان من الكيانات ما هي إلا أقلية كبيرة. والكيان اللبناني هو كيان معوق الاندماج، محجوز الوحدة، تراوح مغضلة الانفصال والاتصال في مكانها، فيما يتطلب تحديداً لحجم التسوية التاريخية المطلوبة لنقل لبنان من مشروع كيان الى كيان واحد.

ونخلص الى أن انعقاد الصلة بين البوابة الوطنية والبوابة الاجتماعية شكل الصعيد السياسي الذي انفجر مع الحرب الأهلية والذي طرح إشكالية الكيان المركب على عوامل تسوية معينة داخلية وخارجية تعرضت الى برنامجين متصارعين كلاهما أطاح على طريقته ومن موقعه بالعناصر التسووية الأصيلة.

ونلحظ أن لكل طرف من الصراع برنامجه، لكن البرنامجين لا يتشابهان. برنامج دعا الى زيادة قدرة لبنان على محاربة اسرائيل وبرنامج دعا الى التعاون مع اسرائيل، وبالتالي فهما لا يستويان. واحد اجتهد وأخطأ في أسلوب محاربة اسرائيل وبرنامج اجتهد وارتكب خطيئة بوجوب الذهاب الى اسرائيل.

بعد هذه القراءة نندفع الى اتخاذ موقف حاسم ضد الحرب الأهلية التي لا تعني القتال بالسلاح فقط، بل تشير الى احتقان بنية مجتمع وانفجارها بشكل من الأشكال ما أدى الى انهيار وليس الى تغيير.

بكلمتين

اوقف الطائف الحرب الأهلية اللبنانية المنفلتة من عقالها، لكنه لم يستطع أن يرسي أسس تسوية سياسية متوازنة تمنع نشوء اتجاهات تجد في تجدد الحرب حلاً... وقد انقسم اللبنانيون الى طرفين، ونلحظ أن لكل طرف من الصراع برنامجه، لكن البرنامجين لا يتشابهان. برنامج دعا الى زيادة قدرة لبنان على محاربة اسرائيل وبرنامج دعا الى تعاون مع اسرائيل، وبالتالي فهما لا يستويان.

• لبناني، اعلامي
welhawari@hotmail.com

أين نقف في السنوية الأولى لسقوط بغداد؟

خالد أحمد أبوحيط •

في التاسع من نيسان من السنة الماضية سقطت بغداد.. دخل المغول عاصمة الرشيد على غفلة من الزمن تماماً كما في المرة الأولى.. تماماً وتماماً أيضاً أحرقت بغداد.. ومرة جديدة حمل الفرات لون الحبر.. ألم تسرق آثار بغداد على أيدي السيد الأميركي "المتحضّر" تماماً كما فعل المغي المغولي؟ ألم يتم حرق الجامعات والوزارات والمكتبات تماماً حرفاً بحرف كما في المرة الأولى؟ لحظات من التاريخ تعود الى الذاكرة بقوة..

الأسئلة المطروحة كثيرة: يمكن اختصار هذه الأسئلة في سؤالين: أين يقع عالمنا العربي والإسلامي في قلب النظام العالمي الجديد؟ وما هو المطلوب منا لنخرج من هذه الحالة؟

في الإجابة على السؤال الأول فاننا ومنذ حرب الخليج الأميركية الأولى في المنطقة نُعيش انعكاسات وتداعيات انهيار الحرب الباردة. وفي هذه الحرب ثمة طرف – هو الأميركي – يعتبر نفسه قد انتصر. وهو انتصر بالفعل.. لكن ثمة فراغاً استراتيجياً وجيواستراتيجياً قد حدث في العالم، فكان لا بد من القيام بأمرين: الأول استثمار فوائد الانتصار بسرعة من قبل المنتصر، والثاني: وضع خطة لملء الفراغ الحاصل.

في الحقيقة، جاءت حرب الخليج الأولى ضد العراق كمحاولة لاستثمار الانتصار، بانتظار الوصول الى إجابة على السؤال الثاني حول كيفية ملء الفراغ.. لذلك لم تحدث الحرب الأولى زلزالاً في العلاقات والمؤسسات الدولية، بل ربما يمكننا الاستنتاج بمفعول رجعي الآن أن ذلك التحالف العريض الذي حدث في تلك الحرب كان يهدف الى تثبيت الوضع القائم في مرحلة ما بعد الانهيار.. وساعد على استمرار ذلك الوضع عقد من الزمن. أن الادارة الأميركية في زمن الرئيس بيل كلينتون كان لديها تصور أنه من الأفضل ادارة العالم بدلاً من حكمه.. والادارة يمكن أن تتم من بعيد.. من الجزيرة الأميركية المعزولة في أقاصي المعمورة.

غير أن هناك من كان يرى غير ذلك، انه تحالف ثلاثي خطير محاوره الايديولوجيا والنفط وصناعة السلاح. هذا التحالف كان يرى أنه لا بد من حكم العالم من أجل ملء الفراغ.. وعدم انتظار قيام قوة عالمية جديدة تفرض توازناً جديداً يؤدي الى العودة الى الحرب الباردة من جديد.. والمرشحون لهذا الدور كثر: هناك الصين، وهناك الاتحاد الأوروبي، وهناك روسيا ذاتها.. أجل! فهؤلاء المحافظون الجدد مقتنعون أن روسيا لم تسقط تماماً، وأنها لن تسقط قبل أن يرفع العلم الأميركي فوق مبنى الكرملن.. روسيا اليوم عاجزة.. ولكنه عجز مخيف بالنسبة الى الادارة الأميركية.. انها أشبه بآلة عظيمة جبارة قطعت عنها الكهرباء.. والكهرباء هنا هو المال.. ولكن يمكنها في حال تحسن الوضع الاقتصادي، أو في حال أقامت تحالفات مع قوى مالية في العالم أن تعود الى فرض توازن جديد.. فالعجز الروسي هو عجز تكتيكي وليس عجزاً استراتيجياً.. صحيح أن روسيا لا يمكنها أن تخوض حروباً صغيرة كما يفعل الأميركي اليوم، ولكنها بالتأكيد يمكنها أن تخوض حرباً كبيرة لما تملكه من امكانات في ترسانتها النووية.. رفع العلم الأميركي فوق الكرملن يعني أن المهمة قد أنجزت، وأن الدب الروسي قد جرد من مخالبه النووية.

أخذاً كل ذلك في عين الاعتبار، يمكن القول أن عالمنا العربي والإسلامي، إضافة الى كونه خزان الطاقة العالمي الأكبر اليوم، وهذه قيمة استراتيجية بذاتها، فانه يقع في قلب رقعة المثلث: فهو في منطقة وسطى بين الصين وروسيا والاتحاد الأوروبي.. انه المنطقة التي أطلق عليها الأميركي اليوم "الشرق الأوسط الأكبر"، والسيطرة عليه مطلوبة وأساسية بل وجيواستراتيجية.. وولاؤه لأميركا وحدها هو في جوهر القضية.. فلم يعد مسموحاً بعد الآن وجود أنظمة مترددة.. المعركة الكبيرة التي يخوضها الأميركي لم تعد تسمح بأنصاف الحلول.. ولا بأنصاف المواقف.. والديمقراطية الأميركية مطلوبة ومطلوبة بشدة.. حتى لو اقتضى ذلك تغيير كل المعالم الثقافية والحضارية والدينية في المنطقة.

من هنا يمكن فهم كل هذا الكم الهائل من العوامل المتداخلة: فالحرب التي تولى فيها رئاسة الحوزة نجح في استعداء معظم علماء الدين الشيعة في العراق والعالم عليه. وكذلك، وهذا هو الاهم، في استعداء السلطة القائمة ايضاً، الامر الذي دفعها لاغتياله في 1999/2/18 مع اثنين من اولاده، عقب ادائه الصلاة في الصحن الحيدري. وقد اثار نبأ اغتياله مشاعر عارمة من السخط داخل المجتمع الشيعي بشكل عام، لم يقتصر على مؤيديه فقط واندلعت احتجاجات كثيرة قابلتها السلطة بالقمع الشديد، ثم ما لبثت ان هدأت تدريجياً.

وبسقوط النظام الصدامي في 9 نيسان 2003، تنفس التيار الصدري الصعداء، وفرض نفسه بقوة في الشارع العراقي، متجاهلاً القوى الاخرى الموجودة في الساحة. واثر منذ البداية ان يتخذ جانب المعارضة للاحتلال الاميركي، محاولاً استفزازه قدر الامكان.

ولكن الخطأ الفادح الذي وقع فيه، هو اغتيال عبد المجيد الخوئي عقب عودته من المنفى مباشرة ما اثر على خلفية العداء القديم بين السيد محمد الصدر والمراجع الاخرى. وروى بعض الشهود ان الخوئي اقتيد بعد اصابته بطعنات السكاكين الى منزل مقتدى الصدر للبحث بشأنه، فطلب من اتباعه ابقاءه خارجاً، والاجهاز عليه، وهو الامر الذي لم تنسه له قوات التحالف، واحتفظت به كورقة ضغط عليه.

والمعارضة التي قادها السيد مقتضى الصدر غير واضحة المعالم. فقد رفض كل شيء بدءاً من مجلس الحكم وانتهاء بالدستور الموقت مروراً بالحكومة الموقتة، وأعلن من جانبه تشكيل حكومة ظل وتأسيس ميليشيا جيش المهدي. وفي احدى خطب الجمعة أعلن اعتزاله العمل السياسي. أما علاقاته بالقوى الشيعية الاخرى، اسلامية وعلمانية، فقد اتسمت بالنفور. وسبق لاتباعه ان ضربوا حصاراً على المراجع الاربعة الكبار، وطالبوا السيستاني بمغادرة العراق.

وفي كل هذه الاحوال، لم يعرف عن مقتدى الصدر انه طرح برنامجاً سياسياً، او بشر برؤية مستقبلية. ولا يعلم احد في ما اذا كان يؤمن بالديمقراطية اولاً، وما هي الحلول التي يراها مناسبة لمشاكل التنمية واعادة الاعمار وحفظ الامن وتشريع الدستور والأقليات الطائفية والعرقية. فكل ما يسمعه المرء هو التنديد بأميركا والاحتلال.

ان دعوته لمقاومة الاحتلال بطريقة سلمية ليست فريدة في بابها، ذلك ان معظم القوى السياسية تنتهج هذا الخط وترى ان خير وسيلة لانهاء الاحتلال هي الضغط عليه، وفي الوقت ذاته، تسجل لنفسها حضوراً سياسياً. ولكن طرق معارضة التيار الصدري استفزازية الى حد بعيد، وتطلق نعوتاً لا تتقبلها سلطات الاحتلال، ما حدا بها الى اغلاق صحيفة الحوزة الناطقة باسم التيار، بتهمة التحريض على قتل جنود التحالف، لمدة ستين يوماً.

ثم اردفت ذلك باعتقال مصطفى اليعقوبي، احد مساعدي الصدر البارزين لعلاقته بمقتل عبد الحميد الخوئي الآنف الذكر.

وقد اثار الامر موجة احتجاج واسعة من قبل اعضاء التيار تطورت في ما بعد الى مواجهات دامية في النجف وبغداد وبعض المدن الأخرى. الا ان الدعوة للاحتجاجات ترافقت مع معلومات عن محاصرة منزل السيد مقتضى الصدر نفسه، ما اعطى الاحتجاجات طابع العنف. واتضح في ما بعد ان الرجل معتصم في مسجد الكوفة بمحض ارادته.

لقد أصبح الوقت مهيأ الآن لابراز ورقة اغتيال عبد المجيد الخوئي واستخدامها للضغط على الصدر، وجره للمثول امام القضاء. وقد تبين ان مذكرة توقيف صدرت

بكلمتين

جاءت حرب الخليج الأولى ضد العراق كمحاولة لاستثمار الانتصار، بانتظار الوصول الى إجابة على السؤال الثاني حول كيفية ملء الفراغ.. لذلك لم تحدث الحرب الأولى زلزالاً في العلاقات والمؤسسات الدولية، اما الثانية فقد كان لها اثر اكبر...لكن المشكلة في الحسم بتفوق الاخر. ان هذا الحسم القاطع بتفوق الآخر هو بسبب أننا نتبنى مقاييسه هو في تعريف الحضارة، وهي المقاييس المادية البحتة.

هي في آن واحد حرب جيواستراتيجية تستهدف اطباق السيطرة على الرقعة الجغرافية الممتدة والحيوية في آن باعتبارها الامتداد البري الأهم من الناحية الاستراتيجية في العالم.. وهي حرب اقتصادية للسيطرة على خزان الطاقة الذي لا قيام لقوة أو استمرارها على المدى المنظور من دونه، وهي حرب ثقافية باعتبار أن الولاء (الثقافي والفكري والروحي) هو الضمانة الوحيدة لاستمرار التواجد الأميركي من دون مشاكل.. وهذا العامل الأخير هو ما تتكفل "الحرب على الإرهاب" توضيبه وتغليفه حتى ولو اضطر الأمر الى تفتيت المنطقة الى إثنيات على هيئة فيدراليات أو الى إزالة بعض الأنظمة من الخريطة السياسية.. فالمهمة كبيرة كما أسلفنا، ولا بد من السرعة في إنجازها..

وانطلاقاً من فهمنا لقيمة الحرب الحضارية – الثقافية يمكننا أن نفهم بعض المواقف التي تبدو غائمة بالنسبة الينا. يمكننا أن نفهم لماذا تقف فرنسا وألمانيا وروسيا مثلاً مواقف تبدو وكأنها تتعارض مع مصالحها الاستراتيجية. فرغم كل التعارض الاستراتيجي بين هذه القوى وبين الولايات المتحدة، الا أنها في حمأة الوطيس لن تسمح للإسلام أن ينتصر على القيم الغربية. ففي الخيار بين انتصار المشروع الأميركي وبين انتصار الثقافة الإسلامية على هذا المشروع، فإن جميع القوى المستهدفة أميركياً تقف الى جانب أميركا برابطة القيم الغربية المشتركة، وباشتراك العداء للثقافة الإسلامية التي تقض مضاجع الجميع: "الشيشان" بالنسبة الى روسيا، والنمو الديمغرافي الإسلامي في أوروبا، وحركات لم تتبلور بعد بالنسبة الى الصين.

ويمكننا استناداً الى التفسير الحضاري وحده أن نفهم ما يجري اليوم في كل من فلسطين والعراق وأوروبا.. لا بد من إلحاق الهزيمة بالثقافة الوحيدة التي تستطيع أن تواجه كل الجبروت الآلي لترسانة العصر الحديث، وهي ثقافة الاستشهاد وحب الموت.. ولا بد من هزيمته في فلسطين، وفي العراق، وفي كل مكان قبل أن يمتد ليصبح ثقافة عامة في كل المنطقة، ولا سيما اذا ما حققت هذه الثقافة انتصاراً أو شبه انتصار في أي نقطة من العالم، فتلك هي الخطيئة التي اقترفها الجنوب اللبناني.. برهن على إمكان الانتصار بثقافة الاستشهاد.. وهذا ما عنيناه بالقول أن هذا الانتصار هو انتصار استراتيجي وإن جاء بقالب تكتيكي.

هذا يقودنا مباشرة الى السؤال الثاني: ما